



# الجماعات الهامشية بين المركز والأطراف

الألتراس أنموذجا



سامح محمد إسماعيل

باحث ومحاضر في العلوم السياسية وفلسفة التاريخ

٢٠١٥/٥/٢٧

## مقدمة

يمكن القول إن الفضاء الاجتماعي باعتباره المحيط الحيوي الرئيس الذي تتشكل فيه المفاهيم يسمح بوجود ذلك النوع من العلاقات اللامحدودة والممتدة بين معطيات هذا المحيط وأطرافه الجوهرية، وبشكل يتيح تخلُّق المزيد من المفاهيم التي تصبح جزءاً منه؛ دون أن تكون أسيرة أطره ومنطلقاته المعرفية، ومع انتظام الفاعلين الاجتماعيين داخل الفضاء الاجتماعي في ظل أدوار متميزة، يتشكل النسيج العمومي وتتمظهر مكوناته الاقتصادية والطبقية بشكل يتماهي مع منظومة الأدوار والأنشطة التي تُمارس في سياقات أبنية المجتمع وتوجهات أفرادهم ومؤهلاتهم.

وإذا كان جيل دولوز في تمييزه لدلالة المفهوم يرى أنه يأتي جواباً عن سؤال الكيف والحيث، لكونه يمثل تجاوزاً بين مكونات، وليس توحيداً لمكونات، أو جواباً عن سؤال الماهية لكونه سلسلة من التنويعات ودرجات الشدة<sup>١</sup>؛ فإنه بالضرورة يعبر عن تصور ذهني عام ومجرد، أو صورة عقلية تصقلها الخبرات لتنتج مدلولاً التزامياً. وبالتالي فالمفاهيم لا تكون جاهزة في انتظارنا كما لو كانت أجساماً سماوية، فليست هناك سماء للمفاهيم، بل هي قابلة للتجدد والتشكل بصورة دائمة<sup>٢</sup>.

ويمكن القول إن مفاهيم الصراع الاجتماعي ومنطلقاته تنشأ وتتبلور في ضوء العلاقة بين المركز بكل ما يمثله من مؤسسات السلطة وأدواتها وخطابها الأيديولوجي، والأطراف بكل ما يمثله من تكتلات وحركات سياسية وحزبية، حيث تختلف المسافات البينية بين كل منها وبين المركز وفقاً لدرجة التماهي في شبكة المصالح والأولويات المشتركة، حتى إنه في أحيان كثيرة تضيق المسافات بين الفريقين، حيث تلعب بعض الأحزاب والحركات السياسية دوراً في اكتمال منظومة الحكم وتجميل السلطة بمنحها مساحة ديمقراطية شكلية. وعليه؛ يمكن القول إنه لم يكن هناك صراع حقيقي بين المركز والأطراف، حتى وإن ادعت الكيانات الحزبية الهشة ممارسة النضال السياسي، وهو ما انسحب على غالبية الأحزاب والحركات السياسية التي ظهرت في مصر قبل ثورة ٢٥ يناير ٢٠١١م.

## (١) الهامش بين ضغط المركز ورعونة الأطراف

مارست السلطة المركزية سطوتها على كل مؤسسات الدولة، ومدت أذرع الهيمنة إلى الأطراف، وهو ما أجهض قيام معارضة حقيقية بإمكانها أن تمثل تهديداً للمركز وأمن يتحالفون معه، ونتيجة لهذا الضغط الثقيل على الأطراف تمددت سلطة المركز بوصفها بنية فوقية مجهرية لتقصي كل من يعارض منطلقاتها، ولعبت ميكروفيزيائية السلطة دورها في اختراق العلاقات الاستراتيجية، لتصبح سلطة المركز

<sup>١</sup> عادل حدجامي: فلسفة جيل دولوز عن الاختلاف والتكرار، دار توبقال، الدار البيضاء، ٢٠١٢، ص ١٤٧.

<sup>٢</sup> جيل دولوز، فيليكس غيتاري: ما الفلسفة، ترجمة مطاع صفدي، مركز الإنماء القومي - المركز الثقافي العربي، بيروت - باريس، ١٩٨٧، ص ص ٣٠-٣١.



مفعولا وأثرًا للمجموع، بتعدد مستويات تواجدها، وهو ما يمثل أساسا لا مرثيا لها، فالسلطة هنا منتشرة في الجميع وبين الجميع، وهو ما يضيء عليها طابع التعدد والكثرة، فهذه الميكروفيزياء وفقًا لفوكو "تظهر بالعكس علاقات القوى وتعرضها في عنصر لا شكلي وغير مبني" <sup>٣</sup>. وهو ما يجعلها في مواجهة عدد لا نهائي من يؤر الصراع في منطقة أخرى تنشأ في الهامش بعيدًا عن الأطراف .

وفي الوقت الذي كانت فيه الأطراف تخضع للهيمنة (Hegemony) وهي أكثر وجوه الاحتواء مهارة وذكاء وتعبيرًا عن القوة الناعمة للدولة كما يقول جرامشي <sup>٤</sup>، كان الهامش يخضع للسيطرة (Domination)، والتي تتم عن طريق العنف واستخدام القوة، ويعاني باستمرار من تجاهل المركز لاحتياجاته، ويئن تحت وطأة القمع والاقصاء والعوز الاقتصادي، وعجز الأطراف المهيمن عليها عن التواصل معه أو تقديم حلول جذرية لإشكالياته المزمته، والهامش واقع باستمرار تحت نير الاستغلال والقمع الدائمين، ومن الملاحظ تنوع كفاءات السيطرة التي يمارسها المركز على الهامش، فالسلطة إما أن تكسره حين تخضعه لأساليب العنف بكل درجاتها، وإما أن تستلب إرادته عن طريق الضغط الاقتصادي من خلال آليات السوق وتكريس أنماط الاستهلاك، وإما أن تترك له مساحة محدودة من الحرية بالشكل الذي لا يؤثر على سلطة المركز وسيطرته، ولا يعني هذا عدم التداخل في استخدام هذه الكفاءات، بل إن الأصل يبدو في تداخلها أو في تجاوزها، وذلك حين تعتمد السلطة إلى استخدام كل الأساليب القسرية والتعويضية والتلاؤمية لضمان بقائها <sup>٥</sup>. وفي النهاية يخضع الهامش للسلطة المركزية من خلال أدواتها المؤسسية والأمنية، إلا إنه رغم هذا يمتلك بنية يمكن في حال تنظيمها أن تشكل قوة تمثل تهديدًا لسلطة المركز وقدرة على تعطيل فعاليته الميكروفيزيائية.

## (٢) الألتراس والبنية المكانية للهامش

البنية هي الكيفية التي تنتظم بها عناصر أي مجموعة، وهي تعني كذلك مجموعة من العناصر المتناسكة فيما بينها، بحيث يتوقف كل عنصر على باقي العناصر الأخرى، وبحيث يتحدد العنصر بعلاقته بتلك العناصر، فالبنية هي مجموع العلاقات الداخلية الثابتة التي تميز مجموعة ما بحيث تكون هناك أسبقية منطقية لكل على الأجزاء، أي إن أي عنصر من البنية لا يتخذ معناه إلا بالوضع الذي يحتله داخل المجموعة، وعليه فالكل يبقى ثابتًا بالرغم مما يلحق عناصره من تغيير، وبهذا المعنى تشير البنية إلى صورة الشيء أو هيكله أو التصميم الذي يربط أجزاءه، وربما كانت كلمة "هيكل" أكثر صلاحية للتعبير عن هذا

<sup>٣</sup> جيل دولوز: المعرفة والسلطة. مدخل لقراءة فوكو، ترجمة سالم يفوت، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ١٩٨٢، ص ٩١.

<sup>٤</sup> Antonio Gramsci: Contemporary applications, Taylor & Francis, New York, 2002, p.325.

<sup>٥</sup> سالم العمودي: سيكولوجية السلطة، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٩، ص ٤٥.



المعنى الاختباري لكلمة "البنية": إذ المقصود من هذا المعنى ما يعطيه إيانا الواقع من صيغ بحيث تكون البنية هي مجموع العلاقات التي تبدولنا<sup>٦</sup>.

وتعبر البنية المكانية عن سلسلة من العمليات ذات النسق التكويني، وهي تتميز بخاصية الاعتماد والاعتماد المتبادل لمجموعة من العوامل المتداخلة الاقتصادية والطبيعية والبطوغرافية، حيث ترتبط طبيعة الحيز المكاني بالموارد البشرية والإمكانات الاقتصادية المتاحة<sup>٧</sup>. وبنية الهامش لا تعني الإشارة إلى وضع طبقي متمايز، حيث ينضوي تحت الهامش قطاع كبير ممن ينتمون إلى الطبقة الوسطى - التي عانت من الضغط الاجتماعي في ظل اقتصاديات السوق- وما دونها من طبقات أخرى تجمعها خصائص وظيفية متشابهة، رغم تفاوت مستوى الثقافة والتعليم، لكن الفعاليات الاقتصادية الموجودة في الحيز أعطت خصائص مكانية وظيفية، وحجم مستقرات ذات خصائص متشابهة، فخرج الجامعة القابع في الهامش يعاني البطالة والتهميش، ويضطر للاشتغال بأعمال تمارسها الطبقة العاملة وما دونها، والبنية المكانية للهامش ليست استاتيكية، ولكنها بنية حيوية دائبة الفعالية، تتميز بالحراك الدائم وعدم الاستقرار الاقتصادي، والهامش شاب بطبيعته، يمثل صغار السن فيه أغلبية كبيرة نظرا لافتقاره إلى آليات تنظيم الأسرة، وثقافة تحديد سن الزواج بالنسبة للإناث، والهامش تنتابه بشكل عام حالة من عدم الرضا عن الأداء الحكومي، مع رفض الخضوع لأذرع الهيمنة التي يمدّها المركز عبر مؤسساته، وإحباط دائم من محاولات الأطراف الباهتة للتحديث باسمه، والمزايدة بمتاعبه، وعليه يمكن القول إن الهامش هو ذلك الجزء الحيوي من المجتمع الخاضع لسيطرة الدولة أمنيا والبعيد عن دوائرها، والغارق في إشكالياته واهتماماته الخاصة.

والمجتمع ككيان، بحسب توصيف بيير بورديو، تنتابه حركة دينامية مستمرة تتلاقى عبرها وتتشكل حقول ومجالات عدة، بحيث يتولد عن تلك الحركة تركيب وتنضيد محاور ومساحات يتموقع فيها الفاعلون كل وفق احتياجاته ورهاناته، حيث تتشكل المجموعات ارتكازا على أبنية هرمية تعتبر حجر الزاوية في خلق حالة تخضع لمعطيات المجتمع وأدواته، وتمثل الرياضة حقلًا يكثفه زخم شديد الحضور في الفضاء الاجتماعي لما لها من تأثير واسع على قطاعات عريضة من الفاعلين الاجتماعيين<sup>٨</sup>. ومع الوقت تشكلت ذوات أدائية فاعلة ضمن تلك الكتلة البشرية الهامشية الكبيرة، تركزت حول النشاط الرياضي، وكما يقول جرامشي فإن الكتلة البشرية لا تتميز ولا تصبح مستقلة من تلقاء نفسها إلا عن طريق تنظيم نفسها بالمعنى

<sup>٦</sup> عبد السلام بن عبد العالي: الميتافيزيقا، العلم والأيدولوجيا، ط٢، دار الطليعة، بيروت، ١٩٩٣، ص ص ١٢-١١.

<sup>٧</sup> Stanislaw Ossowski: Class Structure in the Social Consciousness, Vol.102, Taylor & Frankis, New York, p.10.

<sup>٨</sup> Eric Dunning, Dominic Malcolm: Sport: Sport and power relations, Taylor & Francis, New York, 2003, pp.286-287.



الواسع، ولا تنظيم بدون منظمين وبدون قادة<sup>١</sup>، وعليه، فقد ظهرت روابط المشجعين، وشخصية "كبير المشجعين" أو رئيس الرابطة، وذلك منذ تصدر المشهد الرياضي فاعليات البنى التحتية للمجتمع، لكن تلك الروابط كانت تابعة بشكل أو آخر لسلطة مركزية هي مجالس إدارات الأندية والتي تتبع بدورها اتحادات الكرة الخاضعة مباشرة لسلطة الدولة التي حرصت باستمرار على التدخل في توجيه مسارات النشاط الرياضي، والهيمنة عليه من خلال الدعم المادي.

وكان ظهور مجموعات الألتراس في المشهد المصري مؤشرا هاما على تشكل قوة منظمة خرجت من الهامش، وامتد نشاطها إلى مساحات مغايرة لما هو متوقع، خاصة في ظل النقلة النوعية التي أحدثتها في الملاعب، من حيث أساليب التشجيع الحديثة، والتنظيم الفائق، والقدرة على الحشد والتوجيه.

ومع قيام ثورة يناير أبدت تلك المجموعات تفاعلا كبيرا مع الحدث السياسي، وقد تجاوزت في حراكها "محدودية التأثير" الذي اكتنف القوى الثورية والنخب التقليدية، فيما يخص قدرتها على تنظيم نفسها والتواجد في الشارع الثوري وتوظيفه، كما نجحت في إدخال معطيات جديدة للتفاعل بين الشباب، وهو تفاعل يحمل في مكوناته الاهتمامات المشتركة، وأبجديات لغة خاصة لا يفهمها غيرهم، وهو مامنح المد الثوري رئة جديدة للتنفس، بظهور نموذج غير مألوف فرض نفسه على الشارع الثائر بلا توقف، وهو ما أثار الكثير من التساؤلات الممزوجة بالدهشة ونظرات الاعجاب حيناً، أو التوجس والرفض حيناً آخر، في حين واصل الألتراس نشاطهم على خطوط المواجهة الأولى دونما أدنى إكتراث بما يقال عنهم.

ولعل التسمية ذاتها تجيب عن شيء مما يبدو غامضا في طبيعة وسلوك الألتراس، ف ألتراس (Ultras) كلمة لاتينية تعني الشيء الزائد عن حده، وهي سمة اقتصرت بالألتراس منذ البدايات الأولى<sup>١</sup>. ولعل القبضة الأمنية وسيطرة المركز بشكل مطلق من أهم الأسباب التي أدت إلى ظهور الألتراس بشكل متأخر في المنطقة العربية، حيث ظهرت أولى مجموعات الألتراس في تونس عام ١٩٩٥م، وسرعان ما

The Antonio Gramsci Reader, Selected Writings 1916-1935., The New York University Press, 1988, <sup>١</sup> David Forgacs (editor): p.199.

<sup>١</sup> تعود بداية مجموعات الألتراس إلى عام ١٩٢٩م حيث كون أنصار نادي "فرنسفاروش" المجري رابطة للمشجعين تميزت باتباع نمط خاص في التشجيع الحماسي والمستمر أثناء المباريات، وفي الأربعينيات من القرن الماضي ظهرت في البرازيل مجموعة تورسيديا Torcida بهدف تنظيم التشجيع في المدرجات وبث الحماس في نفوس اللاعبين، ومع مطلع الستينيات أصبحت تورسيديا جمعية رسمية لها هتافاتها الخاصة ويرتدى أعضاؤها زيا موحدا، ترفع الأعلام الكبيرة وتستخدم الألعاب النارية. وفي أوروبا نشأ أول ألتراس في الملاعب الايطالية عام ١٩٦٣م، وسرعان ما انتشرت الظاهرة في الملاعب الأوروبية، حيث أثاروا موجات حماسية وصخب صاحب كل تحركاتهم في الملاعب المختلفة، خاصة مواكب الكورتيج Cortège وهي مواكب ينظمها الألتراس لمقار الفرق المنافسة وتكون شديدة الاستفزاز وغالبا ما تصاحبها مواجهات وأعمال عنف.

للمزيد انظر:

:Soccer Vs. The State: Tackling Football and Radical Politics, PM Press,Oakland.2011, pp.160-163.Gabriel Kuhn .

انطلقت من تونس إلى منطقة الشمال الإفريقي خاصة مصر والجزائر والمغرب<sup>١١</sup>. ويبدو أن تونس باتت تمثل نقطة انطلاق لمفاهيم وحركات أسهمت في إحداث تغييرات جذرية في المنطقة.

### (٣) الألتراس وتفكيك الأنا

يتشكل الوعي الجمعي من خلال تفكيك الـ "أنا" وخلق نموذج إدراكي واحد يحل محل الذات، ويتمركز حول مجموعة من الافتراضات والمبادئ التي تقع خارجها، لكن هذا لا ينفي الذاتية بشكل قاطع، وإن كان يتحكم في توجهاتها، بحيث ينشأ نظام للتفكير من مجموع ما تم فصل في البنى الذهنية من قيم وعقائد وأفكار وخبرات مهمتها رسم الأطر التي يتشكل في سياقاتها الفعل الانساني، وهو ما يطلق عليه الباراديم Paradigm، وهو بحسب توصيف توماس كوهن نسق قابل للتغيير في كل مرحله، من خلاله تتخلق التصورات وعليه تتحدد المواقف<sup>١٢</sup>.

وعليه، فقد خرجت من الهامش مجموعات الألتراس، لتتخطى أعداد كبيرة من الشباب في إطار فعل جماعي يفوق من حيث العدد والتنظيم روابط التشجيع القديمة، واللافت أنها رغم خروجها من الهامش إلا أنها تنتمي في معظمها لأندية مركزية كبيرة، لكنها لم تكن تابعة بأي حال لمجالس الإدارات أو لأي سلطة أخرى، وبدا الأمر وكأنها مجموعات ريزومية اتسمت بهذا النوع من التكامل الفضايف، وهو تكامل غير عضوي لا يدور في فلك مركز أو تؤطره أيديولوجيا ما.

ويعد التماسك الداخلي أبرز سمات الألتراس، حيث أصبحت المجموعة مجتمعا بديلا<sup>١٣</sup>، وقد تراءت فكرة المجتمع البديل من خلال تماسك المجموعة الواحدة وتنظيمها بشكل يمكن إحالته إلى مبدأ

<sup>١١</sup> كَوْن مشجعو نادي الافريقي التونسي ألتراس أفريكان وينرز، ولحقه ألتراس باردو بويز لمشجعي الملعب التونسي، ومع مطلع الألفية الجديدة انتشرت ظاهرة الألتراس في شمال افريقيا، وظهرت عدة كيانات في تونس والجزائر والمغرب صاحبا صخب جماهيري حاد وأعمال عنف تزامنت واللقاءات الجماهيرية الكبيرة، وفي مصر ظهر أولتراس أهلاوي وأولتراس وايت نايتس وأولتراس بللو دراجون عام ٢٠٠٧م، وهو ما نقل الملاعب المصرية نقلة نوعية كما وكيف، وضخ مزيدا من الحيوية والحماس افتقدته الملاعب المصرية طويلا.

لمزيد من الاطلاع على تاريخ الألتراس في المنطقة العربية : <http://ultrasarabe.com/>

<sup>١٢</sup> Thomas S. Kuhn : The Structure of Scientific Revolutions University of Chicago Press, 2012, pp.23-25.

<sup>١٣</sup> يتولى الإدارة الداخلية للألتراس مجموعات عمل صغيرة يسمونها بالتوب بويز (Top Boys) ، تقوم كل منها بتنظيم فعاليات وأنشطة كل مجموعة، مثل تنظيم الرحلات، وتصميم وتنفيذ اللوحات، وتأليف الشعارات والهتافات، وتنظيم وقيادة التشجيع في المناسبات المختلفة، وبشكل عام الإشراف على جمع التبرعات من الأعضاء وغيرهم، والإشراف على شكل إنفاق التمويل داخل كل مجموعة، ولا يوجد للألتراس رئيس، بل يتكون من مجموعة من المؤسسين، الذين سرعان ما يتراجع دورهم بعد أن تصبح المجموعة قادرة على الوقوف على أرض صلبة تظهر شخصية «الكابو» في المدرجات، وهو شخص يتولى الهتاف وقيادة التشجيع طوال المباراة، وعادة ما يجري تغيير «الكابو» بشكل مستمر. وتتم عملية الانخراط في الألتراس عادة مرة في السنة؛ حيث يؤدي المنخرط واجب الانخراط الذي يتم تحديده قيمته من طرف المجموعة، ويحصل على بطاقة أو ما شابه كدليل على الانضمام، والمنخرط في مجموعة الألتراس يجب عليه احترام مبادئ وقوانين الألتراس، والحفاظ على منتجات المجموعة، وغالباً ما تكون الشريحة السنوية لشباب الألتراس ما بين ١٤ إلى ٢٥ عاما مع اختلاف طبقاتهم الاجتماعية والثقافية، وتستخدم مجموعات "الألتراس" مصطلحات خاصة لا يفهمها إلا أعضاء الألتراس، من بينها مصطلح "الباش" أي "اللوجو" الخاص بالألتراس، وهو عبارة عن لافتة كبيرة يصل طولها إلى ١٠ أمتار أحياناً، تحمل شعار المجموعة





العقل الواعي الساعي إلى هدم تابوهات المعاناة اليومية الرتيبة في الهامش، والبحث عن بدائل جديدة، حيث تمظهرت رغبات تحقيق الذات في شكل رؤى أدائية جماعية كان التشجيع الحماسي المتواصل أبرز تجلياتها، وفق بنية أدائية متصاعدة تصل ذروتها في حالة الفوز على الفريق المنافس، فيكون الاحتفال الهستيري تعبيراً عن الحياة المكبوتة، وانفلاتاً من صبرورة الواقع وظروفه القاسية.

ولحالة الألتراس دلالة وجودية مهمة، فالإنسان بحسبانه موجوداً في سياق العالم، يدرك ما يحدث، ولا ينعزل عن جملة الظروف الحياتية وعن علاقاته مع الآخرين، وهو ما يفرض ضرورة التوجه إلى العالم الداخلي للفرد صوب الأنا العارفة التي تصنع نفسها بنفسها<sup>١٤</sup>، ونتيجة لعجز تلك الأنا عن تحقيق الذات لأسباب خارجية قاهرة، كان الاتفاق الجمعي على تفكيك الأنا وصهرها في بوتقة واحدة تسعى لتحقيق انتصار رمزي يتجاوز في دلالاته المشهد الرياضي الكلاسيكي بكل أبعاده.

لقد خرجت مجموعات الألتراس من الهامش بكل آلامه وانكساراته تعبيراً عن ذلك الصراع الوجودي المحموم مع المركز، وتجسيدا لانزياحات الألم الذاتي باتجاه تشكيل منحنى معارض تبرز تشكيلاته من خلال استدعاء كل مبررات الحياة وأحلام الواقع المستلب واسقاطها على الفريق المنتصر.

#### (٤) الألتراس والسياسة

كان ظهور الألتراس في مصر مصحوباً بالتوجس والريبة من قبل الأجهزة الأمنية، وكانت مسيرات الألتراس (الدخلات) تحدياً لقانون الطوارئ الذي يمنع التجمهر بكافة أشكاله، كما بدأت وسائل الاعلام تلتفت لظاهرة الألتراس، وهو التفات صاحبه سيل من الاتهامات بتكريس التعصب والتسبب في الفوضى وأعمال العنف، وفي وقت قصير أصبح الألتراس في مواجهة مباشرة مع قوات الأمن التي ضيقت عليهم الخناق، فتعرضوا للتفتيش الذاتي الصارم قبل دخول المباريات، وسرعان ما أدار الجميع ظهورهم للألتراس، فكانت مجالس إدارات الأندية تتصل منهم عقب كل مواجهة مع الشرطة، لكنهم ظلوا في إطار مجموعة متعصبة من مشجعي الكرة، ليس لهم أي نشاط سياسي، وبالتالي لم تبالغ أجهزة الشرطة في قمع الألتراس وإن واصلت التضيق عليهم، وفي المقابل رد الألتراس بالهتافات التي تمثل تعريضاً مباشراً بضباط

وألوان الفريق، ويتم اختيار الشعار بعناية من الأعضاء، وهناك أيضاً مصطلح "التيفو" وهي كلمة إيطالية تعني "المشجع"، وهي عبارة عن "دخلة" تقوم بها مجموعة الألتراس لتعبر عن رأي أو فكر، وغالباً ما تكون في بداية المباراة، ومن أشهر شعاراتهم "روح الألتراس"، حيث تعتقد مجموعات الألتراس حول العالم في وجود ما يسمى بروح الألتراس، وهي روح يولد بها أعضاء الألتراس، ولا يكتسبونها مهما حدث، ويصفونها بأنها الروح المقدامة المثابرة، العاملة في صمت وجهد، لتحقيق أهداف عظيمة، لا يتم إنجازها إلا إذا انصهرت أرواح أفراد المجموعة في كيان واحد تحت علم ناديه، ولذا تطلق مجموعات الألتراس على نفسها "خط الدفاع الأخير" الذي يدافع عن كرامة واسم النادي الذي ينتمون إليه.

<sup>١٤</sup> محمود عبده على، الألتراس: التوجهات السياسية لجمهور كرة القدم، الأهرام المسائي، ٦ فبراير ٢٠١٢.

<sup>١٤</sup> شحاتة صيام: علم الاجتماع المفتوح، أطروحات ما بعد الحداثة، دارروافد، القاهرة، ٢٠١٤، ص ٢٢٠.



الشرطة وغالبا ما كان الأمر ينتهي بمواجهات يعقمها اعتقال عدد من شباب الألتراس خاصة في اللقاءات ذات الصبغة الجماهيرية .

ومع البدايات الأولى لثورة يناير، وانتفاض الهامش لمواجهة سيطرة المركز؛ لم يكن هناك موقف محدد للألتراس ككيان، وهو ما جاء في بيان أصدره ألتراس أهلاوي<sup>١٥</sup>، ومع تصاعد الأحداث تزايد دور الألتراس ككيان بشكل ملحوظ في ظل تزايد المواجهات مع الشرطة، حتى أصبحوا في وقت قصير في صدارة المواجهات التي شهدتها جمعة الغضب في أنحاء البلاد، كما لعبوا دورا رئيسا في مواجهات موقعة الجمل، وكان ذلك بداية الاحتكاك الأول للألتراس بعالم السياسة، قبل تصدر المشهد الثوري في أحداث محمد محمود الأولى وأحداث مجلس الوزراء، ثم كانت مذبحه بورسعيد وما صاحبها من اتهام مباشر للأجهزة الأمنية بالتواطؤ؛ عقابا للألتراس على المشاركة في الأحداث الثورية، وهنا أصبح الألتراس طرفا مباشرا في كل المواجهات رغبة في الانتقام والقصاص.

وعلى الرغم من تعاطف القوى الثورية وتأييدهم لمطالب الألتراس ومحاولات البعض سبر أغوار عالمهم الغامض واستخدامهم كطرف في النزاع مع السلطة الجديدة، ظهر الألتراس دوما كجماعة جامحة ترفض الانقياد أو التسييس، وركزوا جهدهم في مطلب واحد هو الثأر، وأخذوا موقفا مغايرا لكل القوى الثورية التي حاولت كسر الحصار عن مدينة بورسعيد، حيث ناصبوا كل ماهو بورسعيدى العداء وأيدوا دعاوى المقاطعة والحصار، ولعل تلك الحساسية تجاه القوى الثورية والتي بلغت حد تجاهل وجودها والاستغناء بشكل كلي عن دعمها، يعود إلى مبادئ الألتراس في الاعتماد والاكتماء الذاتي، وعدم تقبلهم أي دعم مادي من الآخرين لضمان الولاء التام من الأعضاء وفقا للقاعدة الأشهر من قواعد الألتراس وهي: أن " يظل الولاء قائماً للمجموعة المكونة وعدم الانضمام لأخرى بشكل مطلق".

ويرتبط الدور السياسي للألتراس بعدة محفزات، لخصها تقرير المركز الإقليمي للدراسات الاستراتيجية في النقاط التالية: <sup>١٦</sup>

<sup>١٥</sup> قبيل انطلاق ثورة يناير نشر "جروب" ألتراس أهلاوي بيانا جاء فيه: "ردا على ما تناولته وسائل الإعلام في الفترة الأخيرة حول مشاركة جروب ألتراس أهلاوي في المظاهرات المزمع حدوثها يوم ٢٥ يناير الجاري، يعلن جروب ألتراس أهلاوي أنه جروب رياضي فقط، وليس له أية اتجاهات سياسية أيا كانت نوعيتها أو انتماءاتها. لذلك فالجروب غير مشارك في المظاهرات المقرر حدوثها يوم الثلاثاء ٢٥ يناير الجاري، أو أي تظاهرات سياسية أخرى. كما يؤكد الجروب على أن كلا من أعضائه هو فرد حر في اختياراته السياسية، لذا فمشاركة أي عضو في أي جماعة سياسية أو أي حدث سياسي هو أمر خاص لا دخل للجروب فيه من أية ناحية. كما أن أي أفكار للأعضاء خارج مجال الرياضة هو تعبير مستقل عن ذاتهم".

جريدة الشروق الجديدة، ع ٢٧ يناير ٢٠١١. <http://www.masress.com/shorouk/384072>

<sup>١٦</sup> المركز الإقليمي للدراسات الاستراتيجية، إشكاليات الاستيعاب، الأدوار السياسية لمجموعات الألتراس في الدول العربية، وحدة التحولات الداخلية، القاهرة ٥ يناير ٢٠١٥.



**نزعات التمرد:** تُسيطر على فكر الألتراس نزعات التمرد، ورفض السلطة؛ بما فيها سلطة إدارة النادي الذي يقومون بتشجيعه نتيجة سيطرة الشباب على تكوين هذه المجموعات ممن يغلب على تفكيرهم الاستقلالية، ورفض القواعد التي يعتبرونها بمثابة قيودٍ على الإبداع في التشجيع، فضلا عن ميلهم الفطري للمغامرة والمخاطرة وتصعيد المواقف باعتبارها قيماً تُظهر التميز الفردي لاحتلال موقع مركزي داخل المجموعة، وهو ما يجعل انضمامهم للحركات الاحتجاجية أكثر احتمالية، على غرار مشاركتهم في الاحتجاجات في دول الثورات العربية خاصةً في مصر وتونس.

**رفض السلطة:** يتجلى رفض السلطة لدى مجموعات الألتراس في توتر علاقتهم بالشرطة، ورفعهم شعارات عالمية الانتشار مناهضة للشرطة مثل "A.C.A.B" وهو اختصار لعبارة معناها "كل الشرطة أوغاد" تعبيراً عن العداوة المستحكمة ضد عناصر الشرطة، وهو ما يتجلى في الاشتباكات المتكررة مع قوات الشرطة التي تتولى تأمين مباريات كرة القدم، وترديد الألتراس لأناشيد معادية للشرطة خلال التشجيع، خاصةً في ظل منع الشرطة لأدوات التشجيع التي يعتمد عليها الألتراس، لا سيما الشماريخ وزجاجات المياه والعصي المستخدمة في رفع الأعلام، وهي الأدوات التي تُستخدم في أعمال الشغب.

**توظيف العنف:** تقوم فكرة الألتراس على الدفاع عن النادي الذي تشجعه الجماهير ضد المنافسين، واعتبار مجموعات الألتراس المنافسة كخصوم، وهو ما يتجلى في ثقافة الألتراس في بعض دول المغرب العربي خاصة، والاشتباكات التي عادةً ما تتكرر بين مشجعي الأندية الرئيسية في المغرب والجزائر، والتي تتدرج بدايةً من محاولة سرقة أدوات التشجيع الخاصة بالخصوم مروراً بالترشق بالألفاظ والاشتباكات بالأيدي وانتهاءً بالعنف وأعمال الشغب الجماعية. وعلى الرغم من رفض بعض قيادات ومجموعات الألتراس لهذه الممارسات؛ فإن تعدد المجموعات ولا مركزيتها وافتقادها قيادةً أو بنيةً تنظيمية مؤسسية يُصعب من احتواء العنف.

**الانتماء البديل:** تقوم روابط الألتراس على اعتبار النادي بمثابة دائرة الانتماء الأول قبل الانتماء الوطني بسبب حالة الاغتراب، واختلال العلاقة بين المجتمع والدولة، ومن ثمَّ يميل أعضاء الألتراس للتعظيم من ناديتهم، واعتباره "وطنًا" و"دولة" تقترن به كافة المقومات المعنوية للانتصار والمجد، ونتيجة لهذا التعارض بين دوائر الانتماء يميل الألتراس إلى رفع شعارات الحرية، ورفض الضوابط والقيود التي تفرضها قوات الأمن، وهو ما يؤدي إلى تأجيج التوترات والصدامات بين الأمن والألتراس.

أضف إلى ذلك القدرة الهائلة على التنظيم، والتحرك الجماعي، مع تحديد الأولويات، وهي أولويات لم تكن تتفق في أحيان كثيرة مع أولويات القوى الثورية الأخرى، وهو ما سبب قدرا هائلا من الخلافات

والمعارك الجانبية<sup>١٧</sup>. ويمكن القول إن طبيعة الألتراس تحتم حدوث هذا النوع من المعارك الجانبية، فالألتراس ليس لهم خط سياسي محدد، وتحركاتهم تأتي على شكل وحدات أدائية تخلو أحيانا من التركيب المنطقي، لكنها تتميز بكونها وحدة واحدة، فهم جماهير كرة انخرطوا في موجة ثورية فرضت عليهم تحديا جديدا محملا بالرغبة في الثأر، اختبروا قوتهم في الشارع، ونتيجة لتماسكهم ووضوح الهدف وعدم التشتت خلف أهداف جانبية أو مشاريع سياسية نجحوا في تحقيق انتصار تصوروا معه أن الفرصة باتت مواتية لحصد المزيد من المكاسب، لكنهم في ظل قراءتهم الجزئية للأحداث ينطلقون وبطبيعتهم الحادة والغاضبة، فلا يعترفون بصداقات أو تحالفات دائمة فهم في رؤيتهم لكثرتهم وقوتهم غير مباليين أو مهتمين بالتحالف مع الآخرين.

هذا التصاعد المأزوم يعكس حالة من الاغتراب النفسي، ليتولد في الذات المنغرسة في آلام الواقع غضبا دفيناً ورفضاً لكل أنواع الوصاية، في هروب قصدي يحاولون من خلاله استكناهه الممكنات لذات جماعية تبحث عن واقع جديد، وبالتالي فنحن أمام مجموعة مغلقة وغامضة تنتفي داخلها الذاتية، ويبقى الانتماء للمجموع هو السمة الرئيسية، يرفض قادتها الظهور الإعلامي، ويتحركون بشكل تلقائي حاد وفقا لمتغيرات وقتية غير مقيدين ببرامج أو أيديولوجيا أو انتماء حزبي. هذا الكيان الغاضب والمتحمس يصعب التنبؤ بأفعاله أو السيطرة على أعضائه، كما يصعب اختراقهم بشكل كلي، لكنهم ليسوا بمنأى عن الاختراق الجزئي غير المباشر، لكنهم يظلون عبئا على أي حزب أو كيان سياسي يحاول تسييسهم أو التحكم فهم وتوظيفهم؛ لما لهم من طبيعة انفجارية تلقائية يصعب بل يستحيل التحكم فيها.

جدير بالذكر أنه مع وصول جماعة الإخوان إلى الحكم، والانتقال الشكلي من الأطراف إلى المركز، لم تكن الجماعة الفاعل الرئيس، بل كان ثمة فاعلون آخرون في المركز، ومع تصاعد وتيرة الصراع على السلطة، وفي عملية استدعاء ممنهج للمستوى الأدائي للألتراس لجأ فاعلون في المركز إلى الهامش، لتظهر

<sup>١٧</sup> في فبراير ٢٠١٣م دب خلاف بين مجموعات الألتراس المشاركة في مسيرة جرت أمام وزارة الدفاع، وبين سائر القوى الثورية المشاركة والمتضامنة معهم، حيث أصر شباب الألتراس على تركيز مطالبهم حول محاكمة المتسببين في أحداث بورسعيد، في حين أرادت القوى الثورية إدانة النظام ككل، وسرعان ما تطور الأمر إلى اشتباك بالأيدي بين حلفاء الأمتس، مع تبادل الاتهامات بين الطرفين، وانتشرت عبارات التخوين والعمالة، حيث قالت الناشطة سالي توما نقلا عن جريدة الوطن: "إن الألتراس "جماعة فاشية ترفض كل من يخرج على قواعدها، ولا تقبل أي شخص يخالف تعليماتها"، في حين صرحت نورة نجم: أن "الخطأ يعود لجانب القوى الثورية التي ارتضت النزول مع مجموعة لم تدخل معترك السياسة إلا للبحث عن حقوق شهدائها، وحينما حصلت عليه بعد حكم مذبحه بورسعيد انتهي الأمر"، في حين دعا محمد موسى عضو الجبهة القومية صراحة إلى مقاطعة الألتراس وعدم اعتبارهم فصيلا ثوريا، ووجه نداءً للقوى الثورية جاء فيه: "...فيا أيها النشطاء العظام من يبيع دم أبناء شعب بورسعيد ويحتفل بحكم إعدام ٢١ شاباً أغلبهم ليس له علاقة بالقضية لا يسمى إلا خائنا أو خسيساً لا يريد الإصلاح الحقيقي ولكن يريد الزهو بنصر زائف.

. أحمد غنيم: جريدة الوطن القاهرية، «نشطاء»: «ألتراس أهلاوى» اعتدى علينا... ١٧ فبراير ٢٠١٣م.



مجموعات البلاك بلوك، لتتحرك في محاولة لتكوين كتلة أدائية لها ذات الفعلية، بحيث يمكن توظيفها في سياق الصراع على الحكم، لكنها لم تحقق الهدف المنشود، وظلت محصورة في نطاق ضيق، وسرعان ما اختفت عقب أحداث ٣٠ يونيو ٢٠١٣م، ذلك كونها كتلة جاءت من خارج الهامش لأداء مهمة مركزية فيه، فافتقدت تلك الخصائص التي منحها الهامش للأتراس.

## (٥) خاتمة

تماهى حضور الأتراس في المجال العمومي ونسق الحراك الجماعي، حيث اتخذ شكل الدلالة والقانون والهوية فتطابق هكذا مع معطيات الذات الهامشية التي تعاني هذا النوع من الغياب أو التيه الذي تقاطع جزئياً أو كلياً مع كلِّ دلالات الوعي الجماعي؛ سعياً من وراء ذلك إلى خلخلة حالة القلق والغربة، بحثاً عن فضاء مغاير يفضي إلى جواب حقيقي عن إشكالات الواقع وهمومه.

كما شكل الحراك السياسي للأتراس في المجال السياسي نوعاً من أنواع الوعي بوصفه المجموع الكلي للعمليات العقلية التي يتمكن بواسطتها الإنسان من إدراك الواقع والتماهي مع مكوناته، لكونه - أي الوعي - شكلاً متقدماً من أشكال انعكاس الواقع الموضوعي الذي يتفاعل معه الإنسان في ضوء أهدافه ومنطلقاته، وبالتالي يصبح قادراً على كشف أولوياته لكون الوعي نتاجاً من نتاجات التطور الاجتماعي<sup>١٨</sup>، وهو تطور جرى في الهامش نتيجة لانزياحات الفعل المعارض وخروجه من الأطراف تحت وطأة ضغط المركز واستبداده.

وتمثل روح الأتراس ذلك الانسحاق الطوعي للجماعة، حيث يتم تذويب العقول الجماعية داخل عقل واحد يسمى العقل الفعال اجتماعياً، وهو العقل المعياري الذي يلغي ما عداه<sup>١٩</sup>. هنا يغدو الفرد مسكوناً بروح الفريق، وينقاد إلى الجماعة التي تقبله، فيخضع للمنطق "التجميقي الهوياتي" الذي لا يعترف بغير المتعين، ولا يراعي الغيرية بحيث يخلق الفرد لنفسه هوية بالتوافق مع الإكراهات المفروضة عليه<sup>٢٠</sup>.

ويبقى الأتراس ككيان بفعل تكوينه بعيداً كل البعد عن الاحتواء والتوظيف، وهو مرشح بحكم طبيعته للاستمرار في لعب أدوار في المستقبل يمكن أن تكون بديلاً عن جمود الحركات الثورية التقليدية من قوى اليمين واليسار، ولعل ما جرى مؤخراً لـ "أتراس وايت نايتس" يؤكد استمرارية الرفض لقيود السلطة، وتأكيداً على قدرة الهامش ليس على تحريك الأطراف فحسب، وإنما تهديد سلطة المركز باستمرار.

<sup>١٨</sup> M. Rosenthal (Editor), P. Yudin (Editor): A dictionary of philosophy , Progress Publishers Printing , Moscow , 1964 , p. 430.

<sup>١٩</sup> إبراهيم محمود: جماليات الصمت في أصل المخفي والمكبوت، مركز الإنماء الحضاري، دمشق، ٢٠٠٢، ص ١٧.

<sup>٢٠</sup> شاعر عبد الحميد: من الكهف إلى الواقع الافتراضي، عالم المعرفة، ع 36، الكويت، فبراير ٢٠٠٩، ص ٨٨.